الغَدير في الشعر العرفاني الفارسي كتاب (مثنوي) لجلال الدين الرومي اختياراً

Al-Ghadir in Spiritual Persian Poetry : (Mathnawi) Book by Jalal Al-Din Rumi as a Study Sample

أ.م.د. علي مجيد البديري

جامعة البصرة / كلية الآداب

By :

Assist.Prof .Dr. Ali Muhammed Al-Bedary

College of Arts /Basra University

ملخص البحث

حَظِيَتْ أحداثُ يوم الغدير وأحاديثُه بمساحةِ اهتمامٍ كبيرةٍ من قِبَل الشعر الإسلامي ، قديمه و حديثه ، رصدَتْها بدأبٍ ودقةٍ علميينِ جهودٌ طيبةٌ لكثيرٍ من الباحثين والدارسين ، بطريقةٍ وفَّرتْ على من يريد معاينةَ تجلياتِ هذا الحدث في النصوص الشعرية أمراً يسيراً ، من هنا شرعتْ هذه المحاولةُ المتواضعةُ في مقاربة أنموذجٍ شعريٍّ من هذا الشعر الكثير ، وكان الاختيار يتوجه نحو الشعر العرفانيّ الفارسيّ ، كتاب (مثنوي) تحديداً ، لتوافره على نصٍ يرى الباحثُ بتواضعٍ كبير أنَّه يمتاز بفرادةِ المعالجة وجماليتها الفائقة .

Abstract

The events of Al-Ghadir and the sayings about it have been given a great attention by Islamic poetry, whether old or modern . Scholars and researchers have exerted a great effort to deal with them assiduously and accurately in a way that it makes it easier for those who want to view the manifestations of this event through poetic texts . From this point , this humble attempt approached a selection of poetry from plenty of others .The choice was directed towards Spiritual Persian poetry , specifically, (Mathnawi) book because, as the researcher humbly believes , it has a unique treatment and great aesthetic meanings.

المقدمة

تفتقر المكتبة الأدبية الإسلامية إلى دراسة النصوص الشعرية الخاصة بأحداث يوم الغدير دراسة محايدة ، تتجاوزُ ما هو تاريخيٌّ / تسجيليٌّ لتقف على طرائقَ إعادة تدوين هذا الحدث شعرياً ، والكشف عن جماليات هذه الطرائق وغاياتها .

من هنا شرعتْ هذه المحاولةُ المتواضعةُ في مقاربة أنموذجٍ شعريٍّ من هذا الشعر الكثير ، وكان الاختيار يتوجه نحو الشعر العرفانيّ الفارسيّ ، كتاب (مثنوي) تحديداً ، لتوافره على نصٍ يرى الباحثُ ـ بتواضعٍ كبير ـ أنَّه يمتاز بفرادةِ المعالجة وجماليتها الفائقة ، ولا يعني هذا أن جلال الدين الرومي الشاعر الوحيد الذي وظَّف هذا الحدث في الشعر العرفاني الفارسي ؛ فهناك الفردوسي ، وسعدي الشيرازي ، وحافظ الشيرازي ، ومنوجهري دامغاني ، و ناصر خسرو ، وسنائي غزنوي ، وفريد الدين العطار ، وغيرهم كثير .

حاولتِ الدراسةُ التوقفَ عند طريقةِ اشتغالِ القصيدةِ العرفانيةِ على موضوعةٍ تاريخيةٍ ، و الكشفَ عَن ما يمنحُ تجربةَ الرَّومي خصوصيتَها التي تتخلَّقُ في نَسقِها الخاصِّ ، و تعبِّر عن رؤيتِهِ و مواقفِهِ. وقد أفادَ الباحثُ من الإضافاتِ المَنهجيةِ المُتأخرةِ لمدارسِ الأدب المقارن في مجالِ الدَّراسةِ المُقارنةِ ، حيثُ فرضتِ الدِّراسةُ عنايةً خاصةً بما هو داخلِ النَّص ويُشكِّلُ بنيتَهُ الداخلية، من غير أنْ تُهملَ معطياتُ السياق الخارجي في إضاءةِ النصِّ المدروس .

جلال الدين الرومي وكتابه (مثنوي)

يعد الشاعر العرفاني الفارسي جلال الدين، محمد بن محمد البلخي الرومي المولود في سنة ٦٠٤ هـ في بلخ ، و المتوفى في قونيه ببلاد الروم في ٦٧٢ هـ (١)، من أشهر شعراء التصوف في العالم، فلم تقتصر معاينة شعره والاهتمام بدراسته على النقاد والباحثين الفرس والعرب بل تعدى ذلك إلى الكثير من النقاد الغربيين .

أتاحت له رحلة أسرته من (بلخ) إلى (قونية) التي استقرّوا فيها ، وهو صبي ، لقاءات مع أعلام التصوف من أمثال : فريد الدين العطار ، وشهاب الدين السهروردي ، وكانت ثمرة هذا الانتقال الدائم ـ الذي قطعه جلال الدين الرومي عبر مسافات طويلة ـ نضوج تكوينه الروحي الأوّل . و بعد أن اكتسب معارف عصره و تفوق فيها ، تولى التدريس في (قونية) حيث تزوّج ، و تولى الإفتاء والتدريس فيها ، بعد وفاة والده محمد المعروف ببهاء الدين الذي سبقه في هذا المنصب ، و كان عدد كبير من العلماء والفنانين والصوفية من كل أنحاء العالم الإسلامي يبحثون عن الملاذ في قونية بوصفها إحدى الأماكن القليلة الهادئة في زمن دمرت فيه فلول المغول أجزاءً واسعة من الدولة الإسلامية. ولذلك انتعشت الحياة الفكرية والدينية في هذه المدينة بشكل كبير. وكانت اللغة الفارسية هي لغة المثقفين .

في عام ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م التقى مولانا ـ و كان في الأربعين من عمره ـ بشمس التبريزي ، فتحوّل الفقيه الورع إلى شاعر و صوفي لا يكاد يفيق من شدة وجده. إذ أضرم التبريزي في قلب الرومي حرائق العشق الإلهي ، و بعث فيه كتابة الشعر و أدرك الرومي أنّه اهتدى إلى الطريق الذي خلق من أجله، و أنَّ لقاءه بشمس تبريز ـ

كما يسميه ـ لم يكن من باب الصدفة و إنّما كان أمراً مقدراً .

وتمثل مرحلة لقاء الرومي بحسن حسام الدين ـ وهو من تلامذة الرومي ومريديه ـ قمة النضج الفكري والإنتاج الشعري في حياته ، حيث دفع حسام الدين جلبي مولانا إلى نظم تعاليمه الصوفية في قصيدةٍ تسهل على تلاميذه قراءتُها بدلاً من ملاحم السنائي والعطار . فكان حسام الدين يكتب الأبيات التي يقولها الشيخ في أي مكان يرتاده ، وبذلك نشأ كتاب (مثنوي). وبانتهاء الجزء السادس من هذا الكتاب وافت المنية جلال الدين طاوية حياة مليئة بالسعي إلى إعلاء شأن الروح والنفس على الجسد.(٢)

لم يكن الوعي الثقافي للرومي مقتصراً على ما في عصره من علوم و آداب ، فقد كان محيطاً بشكل كبير ودقيق بالثقافات السابقة لعصره ، مثل الميثولوجيا اليونانية ، وعلوم التفسير والحديث ، وعلم الكلام ، والمنطق ، والعلوم الكلاسيكية ، والأساطير والحضارات القديمة ، وكانت له وقفة خاصة عند الشعر العربي فقد درس آثار الشعراء العرب وأعجب بالكثير منها، فضلاً عن الأدبين اليوناني والفارسي.(٣)

و المثنوي شكل من أشكال الشعر ((يبنى على أبيات مستقلة مصرَّعة ، يشتمل كل بيت على مصراعين متفقين في القافية و الروي ، مستقلين في ذلك عن غيرهما.. ويعرف في العربية بالمزدوج، و يشترط في المثنوية ...أن تجري أبياتها جميعاً ـ مهما كثر عددها ـ على وزن واحد.))(٤) والمعروف أنَّ جلال الدين بدأ نظم المثنوي حوالي ٦٥٧هـ ، ثم نظم الجزء الأول بين عامي ٦٥٧-٦٦٠هـ، وأعقبت ذلك فترة عامين من التوقف، ثم استأنف النظم من جديد عام ٦٦٢ هـ. ولم ينقطع الرومي عن النظم حتى وصل إلى نهاية الجزء السادس في صورته الحالية. و للمثنوي طبعات متعددة ونسخ مخطوطة كثيرة ، و له شروح كثيرة بلغات مختلفة شرقية ، و غربية .

ويرى د. محمد كفافي أنَّ روعة المثنوي تأتي من تناوله الحياة بكل جوانبها، حتى أن القارئ لا يكاد يرى موضوعاً من موضوعات الأخلاق والسلوك لم يطرقه الشاعر، على أنَّ سبيل معالجة الرومي له لم يكن سبيل الواعظ، بل سبيل الشاعر الفنان. وقد دفعت ظاهرة احتفاء المثنوي بالقرآن والحديث، وقصص الأنبياء، والقصص الشعرية، والفلك، والأساطير، والعادات، والفلسفة، والكلام، والطب ، بعض الباحثين إلى وصفه بأنه موسوعة صوفية ، وربما كان لوصف المتصوفة له بأنه "كتاب الصوفية المقدس" ـ إعجاباً منهم بمحتواه الفكري ـ أثرٌ في ذلك ، وهو تقييمٌ بعيدٌ عن طبيعة المثنوي ؛ فالشاعر لم يقصد بعمله هذا أن يسجل الفكر الصوفي تسجيلاً موسوعياً تعليمياً ، في حين أن الكثير من متذوقي الشعر والفنون يجدون فيه مصدراً خصباً لألوان من الجمال الفني، إلى جانب ما يحمله من مضامين فكرية أو دينية.(٥)

و يعد مثنوي على ضخامته من أكثر الكتب رواجاً و شهرةً حتى سمّي بـ "القرآن الفارسي" لكثرة تداوله و شرحه و حفظ الناس لأجزاء منه . و يقوم الكتاب على مجموعة كبيرة من القصص يرويها الشاعر بأسلوب رمزي، و ((يعمد إلى بعض الأفكار الدينية التي تعتبر من أسس الشريعة الإسلامية، وإلى صور محددة في القرآن والسنة النبوية، بل وإلى جمل كاملة من الكتاب العزيز أو إلى حديث كامل نصه ، فيتخذ منها رموزاً ذات صبغة جمالية خالصة. وبهذا يفتح الشعر إمكانيات لا حدود

لها لعملية ربط جديدة بين الصور الأرضية والسماوية، وبين الأفكار الدينية والدنيوية.))(٦) ، و بذا تجلّت في هذا المؤلف الضخم ثقافة الشاعر الواسعة و قدرته على تمثلها و توظيفها في كتابته الإبداعية . ولم تقلل هيمنة الطابع الفلسفي أو التعليمي على بعض النصوص شيئاً من شعريتها و توهّج لغتها . و من هنا كانت لغة الرومي الرمزية في المثنوي تعكس مجمل عالم الفكر في عصره ، فلا يوجد شكل بلاغي أو شعري واحد لم يستخدمه ببراعة، على الرغم من شعوره ـ أحياناً ـ بصعوبة التفكير بقوافٍ جميلة . و من الواضح صعوبة تحقيق التوازن في الكتابة الشعرية في ما بين البعدين الفكري والفني . ولعل الرومي من الشعراء القلائل الذين تجلى في نصوصهم الشعرية هذا التوازن الصعب . و لهذا ولغيره من المزايا عُدَّ المثنوي في نظر الكثير من المحققين والدارسين كتاباً فريداً ، لا نظير له في مجاله على امتداد القرون . و مما منحه هذا التميز انفتاح بدايته ونهايته على فضاء تأويلي غير مقيد بما يُشعر القارئ بالبداية والنهاية، فهو ينفرد من بين النصوص الشعرية العرفانية الفارسية بخلوِّه من ديباجة البداية المعروفة (البسملة والحمد والتمجيد والثناء) و قد تأمل الكثير من الدارسين هذه السمة، ونظروا إليها على أنها سمة ومزية للمثنوي لا عيب ، ولم يسموه نصاً "أبتر" مثلما جرت العادة في حالة كهذه (٧) ، أما نهاية الكتاب فكانت قصة شعرية لا تتوقف عند نهاية محددة.

تنصيص الحديث النبوي والتاريخ في (مثنوي) :

تكاد موضوعات النصوص في كتاب (مثنوي) أن تنهل بشكل مستمر وتام من روافد كثيرة أهمها القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، والتاريخ ، و ما أكثر ما جذبت التداعياتُ الشاعر الرومي إلى توسيع مساحة مثنوياته بتأملات شعرية ، يلمس القارئ في كثير منها ، انفتاحها و عدم اكتمالها ، أو أن الشاعر كان ينوي الرجوع إليها ثانية لإتمامها .

لقد كان التنوع في موضوعات المثنوي كبيراً وواضحاً إلى الدرجة التي جاء فيها الكتاب متضمناً جميع النظريات الصوفية التي كانت معروفة في القرن الثالث عشر ، و أصبح من اليسير جداً على كل باحث أو شارح أن يجد ما يبحث عنه في الكتاب من موضوعة وحدة الوجود إلى التصوف الذاتي ، ومن الحب ومراتبه إلى الموقف المتمسك بالشريعة.(٨)

ولا شك في أن خوض الشاعر في كل هذا ، مرتكز إلى أصول التشريع ، وموجَّه بما قدمه الخطابان القرآني والنبوي من رؤية ومنهج واضحين . فالرومي ومعه معظم الشعراء الفرس ((قد قرؤا كتب الأحاديث واستوعبوها ، عندما تعلموا اللغة وفنون الأدب ، لأنهم كانوا يعدُّون الأحاديث النبوية أنموذجاً متكاملاً للكلام العربي الفصيح يمكن أن يحتذى))(٩)

احتل توظيف الحديث النبوي في (مثنوي) مساحة كبيرة ، وصل العدد فيها إلى ((٧٤٥ حديثاً نبوياً مفسرةً ومشروحةً ، يذكر الحديث باللغة العربية مباشرةً ، أو يشير إلى معناه في مواضع أخرى))(١٠) ، و يشكِّل الحديث النبوي في جميع هذه المواضع عاملاً محفزاً على الاسترسال الشعري العرفاني ، يتنقَّل الرومي من خلاله بانسيابية كبيرة بين فضاءات متسعة ، لا يشعر القارئ المتأمل فيها بالتعب أو الملل.

الغدير في (مثنوي) : موضوعةً عرفانيةً

لا تتوقف مثنويات الرومي عند حدود استحضار ما يمكن تسميته بمكتبتها النصية ؛ التي هي مجموعة النصوص الدينية والأدبية والتاريخية ، والعمل على تضمين جملٍ أو موضوعات منها لغرض تجميلي أو تعليمي ، ذلك أن رؤية الشاعر العارف تعدُّ هذه النصوص جزءاً من بنية الوجود ، وهو حينما يتوقف عند موضوعة متأملاً إياها فإنَّه يفعل ذلك في ضوء جزئيتها ، وعلاقتها بالوجود كله ، ولعل هذا الأمر يفسر لنا انتقالات الرومي في (مثنوي) من موضوعة إلى أخرى قد لا تجد بعض القراءات لها صلة واضحة توحدها أو تربطها بعلاقة ما .

من هنا يأتي توظيف حدث الغدير وحديثه في نص للرومي ـ الذي ندرسه هنا ـ بطريقة خاصة ، أكثر جمالاً ، وعمقاً مما تحدده بعض المفاهيم الجزئية الخاصة بالتضمين أو الاقتباس .

النص :

((ـ ولهذا السبب سمى الرسول (ص) ذو الاجتهاد نفسه و علياً باسم المولى.

ـ قال: كل من أكون له مولى وحبيباً ، فابن عمي علي مولاه أيضاً .

ـ فمن هو المولى ؟ إنه هو الذي يحررك ، وهو الذي يضع الأغلال عن قدمك .

ـ و ما دامت النبوة هادية إلى الحرية ، فالحرية تكون للمؤمنين من الأنبياء .

ـ فاسعدوا يا جماعة المؤمنين ، و تحرروا كالسرو والسوسن .

ـ لكن داوموا في كل لحظة على شكر الماء بلا لسان كالروضة جميلة الألوان .

ـ فبلا لسان تردد أشجار السرو والمروج شكر الماء و شكر عدل الربيع في أوله !!.

ـ فهي مرتدية الحلل ، باسطة أذيالها ، ثملة ، راقصة ، سعيدة ، ناثرة للعنبر .

ـ فأعضاؤها عضواً عضواً حاملٌ من ملك الربيع ، وأجسادها كالأدراج مليئة بدر الثمار .

ـ إنها على مثال مريم حامل في المسيح دون بعل ، صامتة لا تنبس بهذر ، أو كلام فصيح .

ـ إن ثمرنا قد سطع سعيداً دون نطق ، و كل لسان وجد النطق من بهائنا .

ـ و نطق عيسى عليه السلام يكون من بهاء مريم ، و نطق آدم عليه السلام شعاع لذلك النفس .

ـ و حتى يزداد الشكر أيها الثقات ، هناك أذن نبات آخر في نبات .

ـ وانعكاسه هنا : ذل من قنع ، و في ذلك الطور عز من طمع .

ـ فلا تمضي في جوال نفسك كثيراً ، ولا تكن غافلاً عن الذي يشرونك .))(١١)

يتصل النص عبر نسيج دلالاته المتفرعة بنصوص مضمرة ليست بغائبة تماماً عن فضائه ، فهي حاضرة على مستوى التشابه الذي ينشغل الشاعر ببيانه ، وهي نصوص قرآنية تتعلق بالنبيَين الكريمين: آدم و عيسى (عليهما السلام) . و يقوم النص بتفريع دلالة التساوي في (الولاية) مابين النبي (ص) وأمير المؤمنين (ع) إلى ما يوصلها بعلاقات تساوٍ أخرى على سبيل تقريب الدلالة المقصودة من لفظة (المولى) ، وهو أمر لا يخفى على القارئ المتفحِّص قصديَّة

الرومي في فعله هذا إزاء حديث هو موضع خلاف عقائدي بين مدرسة أهل البيت (ع) ومدرسة الصحابة .

تحرص الأبيات في النص على دفع القارئ إلى إجراء عملية استبدال بين أطراف التشبيه في الأمثلة التي يسوقها بطريقة تأملية ، وهي عملية لا يفهم منها بالتأكيد تذويب الفوارق ما بين الأطراف، و إلغاء خصوصية كل طرف ، ولكنه يؤكد الدلالة المشتركة المتخلِّقة عنها ؛ فالصورة التي يرسمها لقيامة الربيع وانبعاث الحياة متولدةٌ من دلالة (الولاية) التي تشترك مع (النبوة) في الهداية والإحياء وانبساطهما على وجه المعمورة . وهذا التوالد والاتصال ما بين البداية وتفرعات النص دلالياً ، يشير إليه الشاعر في نهاية النص إشارةً معبرةً ، وجميلةً ، حيث يقول : ((..هناك أذن نبات آخر في نبات)) ، وهذه النظرة التي تجعل من الشجر معادلاً للعالم والحياة بأسرها ، تقود الرومي في هذا الموضع ، وفي غيره من المثنوي إلى أنْ يصف الأشجار بأنَّها "ذات أحمال" ، وهي في جمالها وبراءتها العذرية تستسلم للنسيم الإلهي المتجلي في أنفاس الربيع ، فتلد الثمار المبهجة. (١٢)

ولعل وراء تكرار هذا الاستخدام في مثنوي الرومي مؤثرات غير نصيَّة تتمثل في ما يشتمل عليه السياق الثقافي من مكونات فاعلة ، فـ ((زيادة الأشعار الربيعية الكثيرة لدى الرومي لا يفهمها إلا أولئك الذين عرفوا كيف أن سهول مدينة كونيا (قونية) يغطيها اللون الأخضر بعد عاصفة تزدهر بعدها الورود وتتفتح أزهار الصفصاف ويمتلئ الهواء بنسيم عطر. وهذا الربيع يعد بمثابة (قيامة) تبعث الأزهار و الأوراق من الأرض السوداء . فالأوراق تتراقص من وجد رياح الحب ، والأزهار تحمد الله بلغتها الصامتة ، والرومي يسمع هذا التسبيح ويشارك فيه بترجمته إياه في سطور مقفاة.))(١٣)

و تحيل نهاية النص إلى معنى التجدد والاتصال بنبع الهداية الذي ابتدأ به النص ؛ اتصال الولاية من غير انقطاع ، الذي أسس له الرسول (ص) في غدير خم ، امتداد الحرية والحياة : ((إن ثمرنا قد سطع سعيداً دون نطق ، وكل لسان وجد النطق من بهائنا)) ، ستكون ولاية علي (ع) تأكيداً للهوية الربانية التي رسمت ملامحها النبوة ، وهي نعمة كبرى وهبها الباري لأمة النبي الأكرم ، لا تدوم إلا بالشكر ، ولا شكر بدون الوعي بهذه الحقائق ، والازدياد في التمسك بها .

إنَّ نُطْق التواصل في النهاية شبيه ـ تماماً ـ بنطق النبي عيسى (ع) ، المعلن عن بداية رسالته ، وهو مثيل النطق الأول لأبينا آدم (ع) ، بداية الحياة والخلافة الإلهية . وهكذا تتصل البدايات بثمارها و تؤدي إليها :

النفخ الإلهي ← آدم (ع)

مريم (ع) ← عيسى (ع)

النبي (ص) ← علي (ع)

وجود آدم (ع) ونطقه وخلافته على الأرض من نفس إلهي ((فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ))الحجر:٢٩ ، و عيسى (ع) كذلك ((وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ)) الأنبياء:٩١ وفي ضوء ذلك يقرأ حديث الغدير. وحين نتأمل معنى الروح الواردة بشأن النبيين الكريمين (ع) ، نجد المفسرين يعرفونها بأنها ((كلمة الإيجاد وهو فعله تعالى الخاص به الذي لا يتوسط فيه الأسباب الكونية بتأثيراتها التدريجية ، وهو الوجود الأرفع

من نشأة المادة وظرف الزمان ، وأن الروح بحسب وجوده من سنخ الأمر من الملكوت))(١٤)

وينقل السيد محمد حسين الطباطبائي في مجال الروايات الواردة بشأن تفسير (الروح) حديثاً عن المعاني بإسناده عن محمد بن مسلم قال : ((سألت أبا جعفر (ع) عن قول الله عز وجل ((ونفخت فيه من روحي)) قال: روح اختاره واصطفاه و خلقه وأضافه إلى نفسه وفضَّله على جميع الأرواح فأمر فنفخ منه في آدم .))(١٥) ولا يخفى في ضوء ذلك ما أراد أن يلمح إليه الرومي من معنى ودلالة وهو يستدعي هذه النصوص القرآنية ، ويفرع في صورة الإحياء والانبعاث وتواصل الحياة و الهداية .

دوافع قراءة "الغدير" عرفانياً :

من جانب آخر نجد أنَّ في استدعاء الشاعر لموردين من القرآن الكريم ـ حصراً ـ في مجال تأمله لحديث الرسول (ص) و نسجه مثنويات النص حوله بطريقةٍ تفريعيةٍ إلماحاً إلى ضرورة قراءة مسائل الخلاف في ضوء معطيات القرآن الكريم ومفاهيمه، وإن كانت مقاربته هنا تتوسل الشعر للوصول إلى وعي كامل ورؤية واضحة في قراءة حديث الغدير ونص الولاية. ولذا ينبغي التعامل مع خصوصية هذه المقاربة بنوع من الحذر والدقة فـ((لا يمكن دراسة النص / اللغة الصوفية إلا بعد دراسة آلية تكون المفردة والجملة المكونة للنص بمعنى آخر الرجوع إلى التجربة الصوفية المكونة للغة التصوف ، لأن اللغة هنا تكونت من منظور صوفي خاضع لسلسلة من الاستعدادات و الممارسات الخاصة ، فالنص هنا لا يتكون بعد إجهاد عقلاني و تخطيط إنشائي مسبق بل من إجهاد / استعداد روحي وراء النظر العقلي))(١٦) .

ومن هنا ترتبط لغة الرومي بتجربته ارتباطاً وثيقاً ، فلا يمكن ربط سبب التصاق شعره بالواقع عامةً ، وبالحدث التاريخي خاصةً ، بالغرض التعليمي وحده ، الهادف إلى تحقيق توصيل المعرفة لمريديه وتلامذته ، شأنه شأن بقية النصوص التي أفاد منها في مثنوياته ، ذلك أنَّ الرومي يدرك خصوصية الشعر وقابليته على قراءة الواقع والحدث التي تتجسد في أنه يهيئ مساحةً واسعة لتأمل الوجود وفهمه، فالنص الشعري يمثل رؤيةً تأويليةً / جماليةً للواقع والفن في الوقت ذاته ، يحقق الشاعر فيه و بهِ ما لا يستطيع المؤرخ أو الراصد العادي أنْ يصل إليه .

إنَّ قراءة الرومي لحدث (الغدير) و نصِّهِ لم تكن مجرد وضع دالٍّ مكافئ لمدلول ما ، إنَّما هي عبارة عن حوار يجسد اتصالاً و تفاعلاً بينه بوصفه قارئاً ، و بين الموضوع بوصفه مقروءاً. و قد عمد الرومي إلى انتزاع حديث الغدير ، أو نص الولاية من حدود الحدث التاريخي ، وتوظيفه في النص ، محاولةً منه للفت انتباه المتلقي إلى الدلالة الكامنة وراءه ، فهي حركة باتجاه إبعاد الحديث عن التفسير المألوف في دلالته من أنَّ (المولى) هو (المحب)، إلى فضاء دلالي واسع و عميق ، يمنحه حضوراً جديداً ، متفاعلاً ، في نسيج الشعر وأبنيته المتعاضدة ، وأنَّ (التاريخي) هنا يكتسب وجوداً جديداً وهو يدخل فضاء (الشعري) ، ويتخطى مزاياه النوعية المتعلقة بكونه حدثاً من أحداث ماضية ، ولا ينظر إليه في النص الشعري إلا من جهة وصفه بأنَّه مادة داخلة في بنية الشعر وخاضعة لاشتراطاته وقوانينه ، ومن جانب آخر ستتمتع المثنويات هنا (في هذا النص) بمزايا إضافية منحها إليها تواشج الواقعي / التاريخي مع جماليات النص . وسيقوم الخيال هنا ـ بوصفه مضغة

الشعر ـ بدور معرفي على نحو يذكرنا بقول ابن عربي عن المتصوفة بأنَّ ((الخيال عندهم يساعد في الكشف عن نوع مهم من المعرفة وينير الطريق لإدراك طائفة من الحقائق المتعالية التي لا يصل إليها العقل الصارم للفيلسوف ، و لا يقترب منها ذهن الرجل العادي المنصرف للظواهر .. و الذي يتعامل مع الأشياء من زوايا المنفعة دون أن ينفذ إلى دلالتها الرامزة إلى المعاني الروحية العميقة))(١٧) .

يدخل الشعر مع الحدث ودلالاته في هذا النص في علاقة يمكن أن نسميها بـ (علاقة تصالحية)، ((موصوفة بالتساكن : أي أن أحدهما يسكن الآخر ، وموصوفة كذلك بالسعي المشترك للإمساك بتجربة الكون ، التاريخ بجدله الإنساني ، والشعر بمحاولته أن يوظف هذا الجدل في خلق شعري يتصف بملامح جدلية على مستوى البنية والدلالة))(١٨) .

إنَّ هذه الطريقة في توظيف التاريخ أو قراءته عرفانياً ، والمتداخلة مع توظيف الحديث النبوي الشريف في الشعر لا تتم منفصلةً عن غاية الرُّومي الرئيسة من كل هذا ، وهي تندرج ضمن ما فرضهُ السياق الثقافي الذي عاش فيه ، وتأثر بمعارفه ، وعلومه ، وبها كان يشكل خلافاً فكرياً أو عقائدياً من المسائل فيما بين المفسرين والمتكلمين والفقهاء ، غير أنَّه كان ((يركز أكثر من أسلافه على ضرورة إفناء النفس ، .. ولم يكن هدفه القضاء على هوى النفس فحسب ، بل كان يرى أنه يجب أن تستهلك النفس الجزئية في النفس الكلية ، وتفنى كما تستهلك القطرة في البحر. والدنيا والموجودات كلها هي عين ذات الله لأنها كلها مثل جداول نبعت من منبع واحد وفي النهاية تصب فيه ، وأساس الوجود هو الله وبقية الموجودات ذات وجود ظلي فقط في مواجهته))(١٩) .

لقد حقق جلال الدين الرومي انسجاماً رائعاً بين موضوعة النص وبين طريقة تناوله ، وهو أمر تكاد تشترك نصوص الكتاب فيه ، وكأن الشاعر عاش لحظة شعرية واحدة متواصلة طوال فترة تأليف أجزاء الكتاب الستة ، وقد ظل حريصاً على توسعة مساحة المحمول الدلالي لنصه هذا من غير أن يطغى حضور مكتبة النص على موضوعه الرئيس ، فجاء التوافق كبيراً بينهما .

والحمد لله ربِّ العالمين

الهوامش

١. ينظر : تاريخ أدبيات إيران (از فردوسي تا سعدي) : ادوارد براون ، ترجمة : غلام حسين صدري افشار ، انتشارات مروارد ـ تهران ، ط٤ ، ١٣٨٦ هـ . ش : ٢٠٠ ، ٢٠١

٢. مثنوي : مولانا جلال الدين الرومي ، ترجمه وشرحه و قدم له : إبراهيم الدسوقي شتا، المركز القومي للترجمة ـ القاهرة ، ط٢ ، ٢٠٠٨ (الكتاب الأول) المقدمة : ٨ ـ ٣٠ .

وينظر : الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف: آنا ماري شيمل، تر : محمد إسماعيل السيد، رضا حامد قطب، منشورات الجمل ـ كولونيا (ألمانيا) ـ بغداد ، ط١ ، ٢٠٠٦ : ٣٥٢ ، ٣٥٥ .

٣. ينظر : مولانا جلال الدين : عبد الباقي كولبي ناري ، ترجمة :د. توفيق سبحاني ، مؤسسه ى مطالعات وتحقيقات فرهنكي ، طهران ، ١٣٦٣ : ٤٠٨

٤. فنون الشعر الفارسي: د. إسعاد عبد الهادي قنديل، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ، ط٢ ، ١٩٨١ : ١١٩ .

٥. ينظر: في الأدب المقارن دراسات في نظرية الأدب والشعر القصصي: د. محمد عبد السلام كفافي ، دار النهضة العربية ـ بيروت ، ط١ ، ١٩٧١ : ٤٩٤ ـ ٤٩٥ .

٦. الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف: ٣٢٣ . وينظر كذلك : سبك شناسى ، د. سروس شمسا ، انتشارات فردوس ـ طهران ، ط٣ ، ١٣٧٦ : ٢٣٢

٧. ينظر : ا ز نى نامه (كزيده ى مثنوى معنوى) ، انتخاب وتوضيح : د. عبد الحسين زرين كوب ، د. قمر آريان ، انتشارات سخن ـ طهران ، ط١ ، ١٣٧٧ : ٣٧

٨. ينظر : الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف : ٣٥٦

٩. أحاديث وقصص مثنوي : بديع الزمان فروزانفر ، انتشارات أمير كبير ـ تهران ، جاب ٢ ، ١٣٨١ هـ .ش / ٢٠٠٢م : ١٣

١٠. الشاعر الفارسي الكبير جلال الدين المولوي المعروف بالرومي: بديع الزمان فروزانفر ، مجلة الدراسات الأدبية ، س١ ، ع٤ ، ١٩٦٠م : ٦٤

١١. مثنوي : مولانا جلال الدين الرومي ، ترجمه وشرحه و قدم له : د. إبراهيم الدسوقي شتا ، المركز القومي للترجمة ـ القاهرة ، ٢٠٠٨ ، الكتاب السادس : ٣٨١ ـ ٣٨٢

١٢. ينظر: الشمس المنتصرة ، دراسة آثار الشاعر الإسلامي الكبير جلال الدين الرومي: آنا ماري شيمل ، تر : د. عيسى علي العاكوب ، مؤسسة الطباعة والنشر / وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي ـ طهران ، ط١ ، ١٣٧٩ش / ١٤٢١ق : ١٦٤

١٣. الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف : ٣٦٥

١٤. الميزان في تفسير القرآن: العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٦ ، مج ١٣ : ١٦٠

١٥. المصدر السابق : مج ١٢ : ١٤٣

١٦. نقد / تصوف ، النص ـ الخطاب ـ التفكيك : شريف هزاع شريف ، مؤسسة الانتشار العربي ـ بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٨ ص: ٧٣

١٧. الفتوحات المكية : محيي الدين بن عربي ، تحقيق: د. عثمان يحيى ، د. إبراهيم مدكور ،الهيأة المصرية العامة للكتاب ،١٩٨٦ ، مج ٢ : ٨٥

١٨. الشعر والتاريخ ، شعرية التناص : ناظم عودة ، الأقلام ، ع ٧/ ٨ تموز/ آب ـ ١٩٩٢ :١٣٢

١٩. التصوف عند الفرس : د. محمد الدسوقي شتا دار المعارف ـ مصر ، ١٩٧٨ ، سلسلة كتابك ع: ٦٢ ، : ص ٣٥

المصادر والمراجع

أولاً : الكتب العربية والمترجمة إليها

الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف: آنا ماري شيمل، تر : محمد إسماعيل السيد، رضا حامد قطب، منشورات الجمل ـ كولونيا (ألمانيا) ـ بغداد ، ط١ ، ٢٠٠٦ .

التصوف عند الفرس : د. محمد الدسوقي شتا دار المعارف ـ مصر ، ١٩٧٨ ، سلسلة كتابك ع: ٦٢، : ص ٣٥

الشمس المنتصرة ، دراسة آثار الشاعر الإسلامي الكبير جلال الدين الرومي: آنا ماري شيمل ، تر : د. عيسى علي العاكوب ، مؤسسة الطباعة والنشر / وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي ـ طهران ، ط١ ، ١٣٧٩ش / ١٤٢١ق

الفتوحات المكية : محيي الدين بن عربي ، تحقيق: د. عثمان يحيى ، د. إبراهيم مدكور ،الهيأة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦ .

فنون الشعر الفارسي: د. إسعاد عبد الهادي قنديل، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ، ط٢ ، ١٩٨١

في الأدب المقارن دراسات في نظرية الأدب والشعر القصصي: د. محمد عبد السلام كفافي ، دار النهضة العربية ـ بيروت ، ط١ ، ١٩٧١ .

مثنوي : مولانا جلال الدين الرومي ، ترجمه وشرحه و قدم له : إبراهيم الدسوقي شتا، المركز القومي للترجمة ـ القاهرة ، ط٢ ، ٢٠٠٨

مولانا جلال الدين : عبد الباقي كولبي ناري ، ترجمة :د. توفيق سبحاني ، مؤسسه ى مطالعات وتحقيقات فرهنكي ، طهران ، ١٣٦٣ ش

الميزان في تفسير القرآن: العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٦.

نقد / تصوف ، النص ـ الخطاب ـ التفكيك : شريف هزاع شريف ، مؤسسة الانتشار العربي ـ بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٨

ثانياً : الكتب الأجنبية

ا ز نى نامه (كزيده ى مثنوى معنوى) ، انتخاب وتوضيح : د. عبد الحسين زرين كوب ، د. قمر آريان ، انتشارات سخن ـ طهران ، ط١، ١٣٧٧

أحاديث وقصص مثنوي : بديع الزمان فروزانفر ، انتشارات أمير كبير ـ تهران ، جاب ٢، ١٣٨١ هـ .ش / ٢٠٠٢م

تاريخ أدبيات إيران (از فردوسي تا سعدي) : ادوارد براون ، ترجمة : غلام حسين صدري افشار ، انتشارات مروارىد ـ تهران ، ط٤ ، ١٣٨٦ هـ . ش

سبك شناسى : د. سروس شمسا ، انتشارات فردوس ـ طهران ، ط٣ ، ١٣٧٦

ثالثاً : المجلات

مجلة الدراسات الأدبية ، س١، ع٤، ١٩٦٠م

مجلة الأقلام العراقية، ع ٧/ ٨ تموز/ آب ـ ١٩٩٢